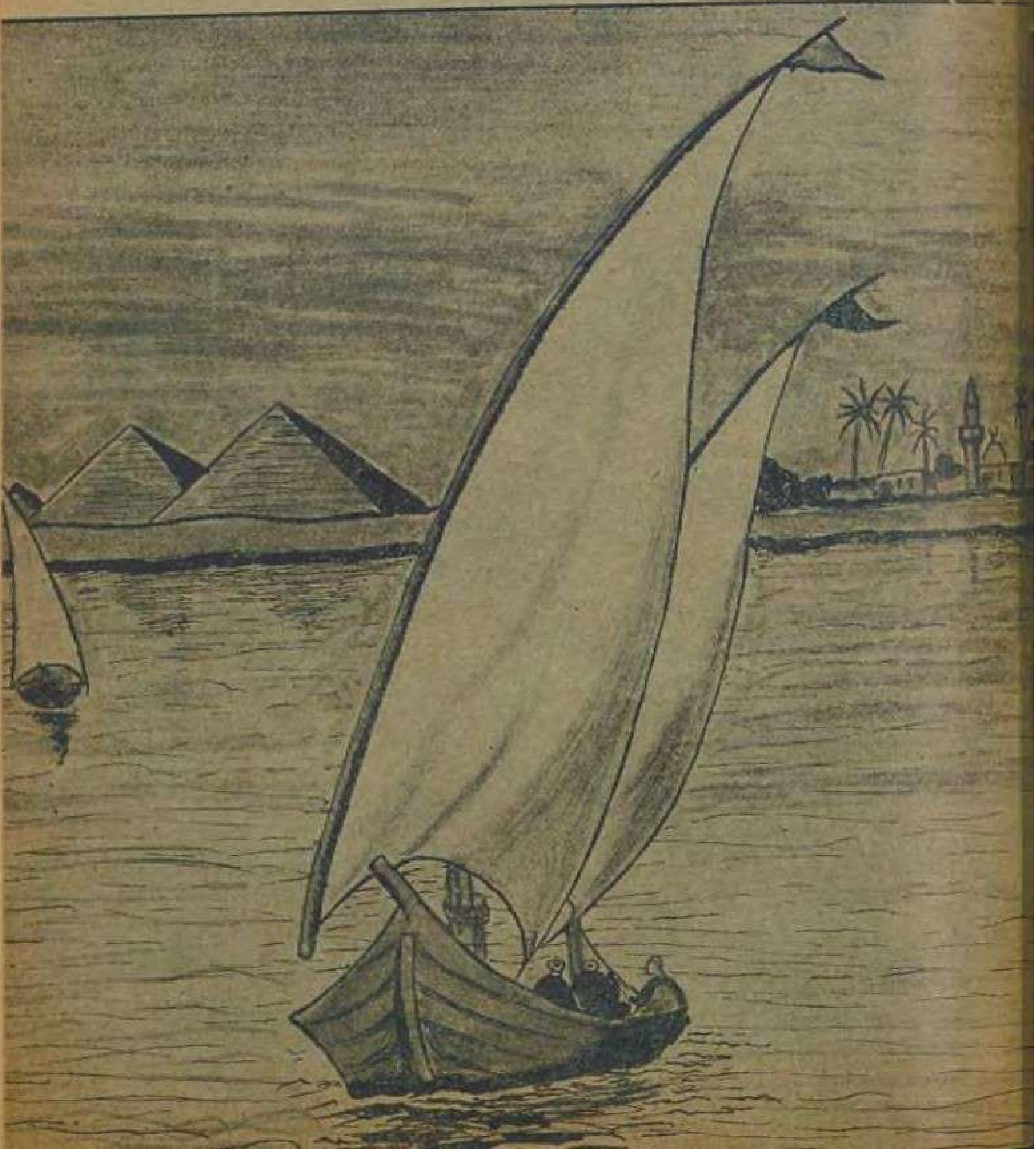
المعرفة

سبتمبر
سنة ١٩٣١

الجزء الخامس
السنة الأولى

١٢٨ صفحة ٣٠ مليما



كيف يدفع الشرق تهمة الغرب

للاستاذ محمد المكي الناصري

عضو البعثة المغربية



بين الشرق والغرب صراع عنيف لا يفتر، وخلاف قديم لا يزال يتجدد في كل حين ومنذ اتصل الغرب بالشرق اتصال القوي بالضعيف والغالب بالمغلوب، أسرف في خصومته وأصبح يعلن بمرأى ومسمع من الانسانية كلها تهماً خطيرة أقل ما يقال عنها إنها احتقار بليغ للعناصر الشرقية، وازدراء شديد بأبناء الشرق.

لقد اتهم الغرب الشرقيين في إرادتهم وأخلاقهم وسياستهم، وادعى أنهم شعوب «سفلى» يجب أن تكون مقودة لا قائدة، ومستعبدة لا سيدة، ولكن الشرق أقام لرد هذه التهمة الباطلة حماة هم خير أبنائه، فجاهدوا الغرب وجادلوه بالسيف تارة وبالقلم أخرى، ولا يزال الغرب سادراً في غلوائه، مصراً على تهمته، ولا يزال الشرق وزعماؤه، يدافعون عن كرامته، وما هذه الزعامات التي نشأت، والأحزاب التي قامت، والثورات التي حدثت ولا تزال تحدث الامظاهر متعددة، لفكرة واحدة وغرض واحد، هو دفاع الشرق ضد تهمة الغرب.

لم يكتف الغرب بهذه التهمة الوحيدة، فاتهم الشرقيين بتهمة أخرى هي أدهى وأمر، اتهمهم أيضاً في عقليتهم وأمزجتهم وثقافتهم وتاريخهم الفكري العظيم، فكانت تهمته هذه أخطر من الأولى وأقبح أثراً في نفوس الاجيال الشرقية، والغرب حكيم حتى في

اتهاماته ! فالتهمة الأولى وجهها باسم السياسة ورجال الاستعمار ، لأنهامن اختصاصات السياسة والبرلمانات ، والتهمة الثانية وجهها باسم العلم والحقيقة العلمية ، لأنها من اختصاصات العلم والجامعات ، والحق أقول إن الغربيين لم يفلحوا فى شىء كما أفلحوا فى هذه التهمة . فقـد استطاعوا أن يضموا إلى جانبهم أنصاراً من الشرقيين غير قليلين ، وظلت تهمتهم تجرى على الألسنة مدة غير قصيرة ، كأنها حكم لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، حتى قامت ثورة فكرية شطرت المثقفين من أبناء الشرق شطرين : (١) دعاة الى الاندماج فى الغرب وتقديس الثقافة الغربية ، وهؤلاء يشكون فى قيمة العقلية الشرقية، (٢) وآخرون يدعون الى الاحتفاظ للشرق بشخصيته وثقافته ، وهؤلاء يؤمنون بقيمته العقلية شديد الايمان .

والذى ساعد على انتشار هذه التهمة بين الشرقيين فيما أرى ، هو أن الغرب كثيراً مابسط يده فى العصر الاخير على المعاهد الشرقية ، فكان هو الذى يضع سياستها التعليمية ويشرع مناهجها أويشرف على تشريعها ، ثم يختار لتطبيقها ، بطريق مباشر أو غير مباشر ، أكثر أبنائه تحمسا للمناهج الاستعمارية ، وأشدهم اغراقاً فى « الشعوبية الغربية » ومن هذه السبيل استطاع أن يكون له بين مثقفيه ، أبواق تذيع بين الشرقيين مابين حين وحين تهم الغرب الخطيرة ، فى صورة القضايا العلمية النزيهة ، وكما كونت مناهج الغرب أنصاراً للاستعمار خطيرين من بين الشرقيين ، فقد أخرجت منهم خصوماً لثقافة الشرق ألداء ، وهكذا ظلت هذه التهمة تنتشر بطريق الدعاية والعدوى والتقليد ، حتى أصبحت عقيدة راسخة فى كثير من النفوس ، ولولا أنها القيت الى الشرقيين من طريق الكتب والدراسات باسم العلماء والباحثين ، والشرق لا يزال مؤمناً بالغرب من الوجهة العلمية— لما كان لهذه التهمة أثر فى عقول الشرقيين ، ولتناثرت فى الفضاء دون أن يشعر بها أحد من الناس .

ونحن أبناء « الشرق الاسلامى » اذا عالجنا الرد على هذه التهمة وهممنا بمقاومتها والدعوة الى ابطالها ، فان عملنا سيكون مقصوراً على الجهة التى تخصنا ، والذى يعنينا أمره بالذات إنما هو الدفاع عن الثقافة الاسلامية ثقافة اسلافنا ، وتراث أجدادنا ، هذه الثقافة التى وجه اليها من الطعن والاتهام ، ما لم يوجه إلى ثقافة أخرى ، وأولئك الاسلاف الذين ظلمهم

التاريخ ظلماً لم يشهده التاريخ نفسه ، ولعل خصومتنا — فى هذا الباب — لا تكون للغربيين جميعا على قدم التساوى ، وانما نتوجه بشكل قوى الى طائفة تتصل بهذا الموضوع اتصالا وثيقا ، وهى طائفة « المستشرقين » فالمستشرقون هم « عيون » الغرب التى ينظر منها الى الشرق ، وهم « رسامون مثاليون » يستطيعون تحسين القبيح وتقبيح الحسن ، ويعرضون صور الناس والاشياء كما يشاءون ، و بالشكل الذى يريدون ، فالمسئولية فيما يوجه الى الثقافة الاسلامية من تهم باطلة ، تقع على عاتق هذه الطائفة قبل غيرها من طوائف الغرب ، وانه ليؤسفنا جدا أن تضع هذه الطائفة نفسها تحت ارادة السياسة ومطامح الاستعمار ، وأن تجعل من المعرفة والعلم ، مهنة حقيرة لخدمة النزعات الفاسدة وترضية الأهواء الجامحة .

ولكن مالنا نغفل عن الحقيقة الواقعة ، وتاريخ الاستشراق نفسه مقترن بتاريخ سعى الغرب الى استعمار شعوب الشرق ، وطائفة المستشرقين انما نمت وقويت وأصبح لها وجود محترم فى الاوساط الغربية ، عندما اشتد الصراع بين الشرق والغرب ، واشتد نهم الغربيين ، فارادوا أن يوسعوا معارفهم عن الشرقيين ليمكنوا أقدامهم فى بلاد الشرق وتكون سلطتهم عليه سلطة شاملة خالدة ، ومالنا لا نستفيد من ملاحظاتنا ونحن نرى صحف باريس تعلن عن محاضرات المستشرقين الفرنسيين وأبحاثهم ، على أنها « أبحاث علمية لخدمة الاستعمار » تلقى فى السوربون ، وكوليج دى فرانس ، والمدرسة الاستعمارية ، ومدرسة اللغات الشرقية ، ونحن نسمع من طرق مختلفة صلة هؤلاء المستشرقين بوزارة الخارجية ووزارة المستعمرات ، وأخبار البعثات السياسية المختلفة التى يقوم بها المستشرقون فى بلاد الشرق ، والتى يمنعون لأجلها أحياناً من دخول بعض البلاد الشرقية ؟ ؟

لقد لاح الصبح لذى عينين ، وأصبح الغرض الأساسى من الاستشراق مكشوفا ومهما اتخذ المستشرقون لوجوههم من الأصباغ والالوان المستعارة ، فلن يستطيعوا إخفاء لونهم الطبيعى ، ولن ينكروا فى يوم من الأيام خدماتهم للاستعمار الغربى وسوء استغلالهم لثقة الشرقيين ، ولو كان المثقفون من أبناء الشرق جميعاً ، لا يتناسون صلة هؤلاء العلماء الموظفين ، بحكوماتهم وأوطانهم ومطامح شعوبهم ، ولا يتجاهلون الميول الشخصية التى يعز على أولئك العلماء ، التخلص منها — ماداموا

أنا.ى ذوى وهم ، وخيـال ، وعاطفة ، ووجدان ، وعقائد مقدسة ، وتقـاليد موروثة لفقدوا ثقتهم بطائفة المستشرقين منذ زمن طويل ، ولمـا غفلوا فى أى وقت عن ظروف التهمة التى وجهت إلى الثقافة الاسلامية ورجالها ، ولا عن شخصيات المتهمين الذين وجهوا هذه التهمة باسم العلم والحقيقة ! ولو نظروا — على ضوء هذه الفكرة — إلى مجموعة أبحاث المستشرقين التى كتبوها عن الثقافة الاسلامية، وعقلية المسلمين ، ومفكرى الاسلام مثلا ، لاستخرجوا من ثنايا أبحاثهم براهين عديدة ، تشرح لهم كيف يندفع هؤلاء القوم وراء الهوى والغرض ، ليثبتوا قضية من القضايا على أساس تجاهل الحقيقة الواقعة ، والتعسف البغيض ، وسوء التقدير : ونحن لا ننكر أن بين المستشرقين فريقاً يميـل إلى الاخلاص والاعتدال بقدر المستطاع ، وعلى رأسهم بعض أساتذتنا المحترمين ، فاننا نقدر اعتدال هذا الفريق فى أبحاثه ومحاولته للانصاف والعدل ، ولـكن صناعة الفقه تعلمنا أن النادر لا حكم له ، والحـكم للغالب . . . وإذا كنا نأسف هنا لشىء فاننا نعلق أسفنـا على أولئك النفر من أبناء الشرق ، الذين لا يزالون ينخدعون بما يحمله المستشرقون من ألقاب علمية ، وما يستعملونه فى أبحاثهم من مناهج عصرية ، فيقتنعوا بنتائجهم ، ويؤمنوا بكافة أنظارهم ، وينصبوا من أنفسهم دعاة لتلك الانظار المدخولة ، والأفكار المعلولة ، راضين بذلك أن تكون كلمة المستشرقين هى القول الفصل فى ثقافتنـا ، والحـكم النهائى فى تراث أجدادنا[1] ؟ ؟

نعم : يسرنا أن يكون إلى جانب هؤلاء النفر — وعددهم يقل يوما فيوما — طائفة أخرى من أبناء الشرق رزقت من طهارة الوجدان ، واعتدال المزاج ورزانة العلم ، وعدالة الحكم ، ما جعلها تنظر إلى الثقافة الأسلامية نظرة جديدة ، غير النظرة الاستعمارية ، « نظرة المستشرقين وأنصارهم من الشرقيين » واعتقدت عن خبرة ودليل ، أنه لا يكشف عن وجه الثقافة الأسـلامية إلا أبنـاء الشرق المخلصون ، وأنه لا يستطيع أن يفهم هذه الثقافة ويقدرها أحسن تقدير إلا أبناء الشرق الذين هم ورثة هذه الثقافة « فأهل مكة أدرى

(١) المسيو « أتيين دينيه » رسام عبقرى من الفنانين الفرنسيين المشاهير وذوى الاطلاع الواسع اعتنق الاسلام بعد اقامته الطويلة فى الجزائر ، وبعد ما حج البيت الحرام ، كتب كتاباً فى « السيرة النبوية » عقد فيه فصلا مهما يعرض فيه معلوماته الخاصة ، عن « الاستشراق الفرنسى » و « المستشرقين الفرنسيين » وهى كلها متفقة مع آرائنا ودلائل جديدة تساعد نظرياتنا .

بشعابها » وأنه لايجمل بنا أن ننتظر من قوم هم خصومنا فى الحياة ، أن يرفعوا تيجان الفخر على رءوسنا ورءوس أجدادنا ، أو يحكموا على عقليتنا وثقافتنا حكما عادلا ، لا غضاضة فيه ولا عدوان ، « فمتى رضى الناس أن يكون الخصم هو الحكم ؟ »

إلا أن هذه الطائفة النزيهة لا تزال مبددة الشمل ، وليست بينها علاقات منظمة حتى الآن ، وليس لها عمل مشترك تتعاون عليه لخدمة هذا الغرض السامى ، وكل ما هنالك أن لها ميولا مشتركة ، تجعلها متحدة فى السعى إلى إنصاف الشرق الاسلامى وثقافته ، ودفع عدوان الغربيين و « المستغربين » وأنا أعرف من هذه الطائفة أفراداً من الكهول والشبان يعملون على انفراد ، فى الشرق والغرب ، ومن بينهم عدد غير قليل من شباب الشرق ، عرفتهم فى باريس ، يجتهد كل منهم أن تكون « أطروحته » فى الدكتوراه خادمة لهذا الغرض « غرض تعريف الغرب بالشرق من طريق الشرقيين أنفسهم ، وتصحيح أغلاط المستشرقين أو نقد أهوائهم » وفى مصر الآن أساتذة كبار ، يقضون أنفس أوقاتهم فى تحضير موضوعات من هذا النوع ، وهم يشتغلون فيها بعناية ، ونشاط ، ولذة ، تساعدهم على إنتاج خصب ، وابحاث موفقة ، سيكون لها أثرها فى عالم العلم ، ولهؤلاء الأساتذة أثر كبير فى توجيه تلامذتهم هذه الوجهة نفسها ، وفى سريان هذا الروح من تلامذتهم إلى طائفة كبيرة من المتعلمين ، تقوى وتنمو على مر الايام ، فهم أساتذة موفقون فى اتجاهاتهم موفقون فى دعاياتهم ، ولا يبالغ من يقول إنهم ينفخون فى طلبتهم روح النقد قبل كل شىء ويحملونهم على العناية فى كل موضوع بتبيين الزائف من الصحيح ، والسقيم من السليم ، ويوحون إليهم أن لا يثقوا بالالقاب العلمية ثقة عمياء ، ويحببون اليهم أن يكونوا حراساً للثقافة الاسلامية ، وأبراراً بتاريخ أسلافنا المفكرين .

هذه نزعة لاشك أنها جديدة فى الشرق الاسلامى ، تأخر زمن ظهورها بعد ظهور كثير من النزعات الغربية الشاذة ، ولكنها فيما اعتقد هى النزعة التى سيكتب لها الانتصار على جميع النزعات الاخرى ، فهى نزعة طبيعية قامت على أساس العلم والاخلاص والحقيقة الواقعة ، وجميع الظروف الحاضرة تساعدها على الانتشار وتضمن لها النجاح والتوفيق ، لاسيما وتيارها الآن سار بين جمهرة عدد كبير من المفكرين المشهورين والكتاب المحترمين ، وهم يدينون بها من أعماق نفوسهم ، ويخلصون لها ولدعاتها شديد الاخلاص .

لكننى أرى أن العمل لخدمة هذه النزعة الرشيدة يجب أن يدخل فى دور التنظيم ، وأن توجه اليه جهود خاصة جديرة بالاحترام ، فالثقافة الاسلامية فى حاجة شديدة الى من يرفع عن وجهها النقاب ، ويقدمها للانسانية كلها شرقيها وغربيها ، فيعرف شباب الشرق ورجال الغرب مالهذه الثقافة من خصائص ممتازة ، تستحق كل اعجاب وتقدير ، وهذه المهمة ليست بالمهمة السهلة القريبة المنال ، بل يعوزها جهود كثيرة ، وأعمال عظيمة ، على رأسها نشر مصادر هذه الثقافة أولا ، والبحث فيها والكتابة عنها ثانياً ، وتدريس تاريخها وموادها فى جامعات الشرق ثالثا ٠

وكلمتنا المقبلة . سنخصصها لشرح هذه النقط الثلاث ، شرحا وافيا ؟

محمد المكى الناصرى